مذكرات مملوك نابليون الاول

كان لنابليون بونابارت مملوكا يدعى عليا خدمه باخلاص خدمة سجلها له التاريخ وقد رافق سيده في حملته الشهيرة على روسيا وأقام معه في ألبا مائة يوم وسافر معه بعد خلعه الى جزيرة القديسة هيلانه ولبث مع سيده حتى مات ثم عاد الى فرنسا وحب سيده ملء قلبه وجوارحه وتوفي علي الذي يسميه الفرنسيون لويس ـ سين ـ ديني عام ١٨٥٩ ولكن اولاده واحفاده حافظوا على مذكراته التي كتبها عن نابليون في طي الخفاء ولم يريدوا نشرها . وقام الآن أحد أقرباء علي الابعد الاستاذ سوربونا

ميشو ونشر تلك المذكرات في كتاب خاص وكان له دوي هائل في فرنسا (1)

وكان لويس ـ سين ـ ديني أو علي يبجل نابليون ويحبه حبا يشبه العبادة ولم يخطىء نابليون في تسميته اياه « عليا المخلص » وسجل اسمه في سجل موظفيه وشهد له نابليون بأنه كان يكتب مذكرات عنه

وفي جزيرة القديسة هيلانه لم يكن علي خادما فقط لنابليون بل كان مديرا لمكتبته وأمينا لاسراره . وكتب مذكراته بغاية الدقة ولم يتوخ فيها البلاغة والغموض بل سرد فيها الحوادث كما وقعت بلا مبالغة ولا غلو ولم يترك شاردة أو واردة الا سطرها حتى تافه الحوادث وقد لخصت جريدة « بوسليدنيا نوفوستي » الروسية اليومية التي تصدر في باريس هذا الكتاب واننا نعربه عنها بما يأتي :

قال عن حريق موسكو ما يأتي : تمثلوا أمام أعينكم مدينة كباريس تحدق بها السنة اللهيب التي تصاعدت الى السماء وانتم تنظرون اليها من فوق برج أيفل . الى أن قال : وفي الليلة الاولى لاحتلالنا موسكو نام الخدم في غرف قصر الكرملين الذي يشرف على موسكو وأنه أي علي استيقظ مذعوراً على زفير النار ونورها الساطع الذي يبهر بصره وأسرع خادم نابليون الخاص وأيقظ سيده الذي لم يصدر أوامر بل قال انتظروا الى الصباح وعند الصباح يحمد القوم السرى

وعند الصباح نهض الامبراطور وأزال بحضوره الاضطراب والوجل اللذين استوليا على رجال الحاشية وكان حضوره دائما يشد العزائم

وقال علي أن نابليون كان يطالع في قصر الكرملين بموسكو تاريخ كارلوس الثاني عشر لفولتير . وكان هذا الكتاب المذهب الحواشي موضوعا دائما فوق المنضدة في غرفة نومه وقد احترق هذا الكتاب في النار التي كانوا يشعلونها للتدفئة وهم فارون من موسكو حيث كانوا في كل مرحلة يضرمون النار للتدفئة فكانوا يوقدون أخشاب العربات المتحطمة والكتب التي كانوا يصطحبونها معهم ومما تجب الاشارة اليه أن آخرة كارلوس الثاني عشر تكررت لنابليون فكأن التاريخ يعيد نفسه

1) Sovenirs du Mamelounk Ali sur l,Empereur Napoléon. Ed. Payot. Paris.

وقال علي أن نابليون كان يعلق على صدره بسلسلة حقا يشبه رأس البصل ظهر فيما بعد أنه ملأ الحق سما وصرح نابليون بأنه كان مصمما على تناول السم اذا أسره الروس وهو فار من بلادهم

وبعد تنازل نابليون عن العرش وسفره الى مالميزون ورامبويه لحظ عليّ أنه يتمنطق بمنطقة ثقيلة فرجح المملوك أن سيده يخفي في المنطقة حجارة كريمة ونقائس وقبل صعوده الى الباخرة الانكليزية حل نابليون منطقته ووزع الذهب المحفوظ فيها على خدمه وأصاب عليا من ذلك ٢٥٠٠٠ فرنك

وقال علي : ان عيشة الامبراطور في جزيرة القديسة هيلانة كانت تسير على وتيرة واحدة . فكان في أيام الطقس الصافي يستيقظ بين الساعة الخامسة والسادسة وينتزه بلباس النوم والخف برفق الجنرال مونتولون واذا نزل المطر أو كان الضباب كثيفا فان الامبراطور يتكدر جدا ويقول : ملعونة هذه البلاد لان طقسها دائم الغيوم والضباب ويجلس حول منضدته يكتب أو يضطجع على المقعد ويقرأ أو ينظر في مناظاره من الكوى الموجودة في ابواب النوافذ . ان نابليون كان يحب أن يرى ويسمع ما يجري في محيطه الضيق حتى أنه كان يقرأ أحيانا رسائل أفراد حاشيته التي يرسلونها الى فرنسا وكذلك الرسائل الواردة لهم . وبعد نزهة الصباح كان يتناول طعام الفطور ثم ينتزه ثانية نحو ساعة وعند عودته للمنزل كان يسمع قراءة بعض الكتب أو يقرأ بنفسه . وعند ما تصله كمية من الكتب الجديدة كان يفتحها كلها ويقلبها واحداً واحداً ملقيا عليها نظرة عامة وعند الساعة الثالثة نهاراً كان يرتدي ملابسه ويخرج للرياضة . ووصف علي في مذكراته ملابس نابليون وعلب لفافات التبغ وجميع أدواته . وقبل الغداء كان يلعب بالشطرنج مع الجنرال مونتولون ثم يتناول طعام الغداء البسيط مع حاشيته أو مع مونتولون . وعند عودته من رياضة الصباح ودخوله المنزل كان رجال الحرس يحيطون بالمنزل ويشددون المراقبة عليه

ان شدة المراقبة كانت تؤثر أدبيا على نابليون وتؤلم شعوره وكانت جنود الجنرال هدسون لوا يظهرون كل يومين أو ثلاثة تحت نوافذ الامبراطور واذا كانت النوافذ مقفلة ولم يستطع الجند رؤيته يعود الجنرال هدسون ويرسل ضابطا يطرق الباب

ويقول : أين الجنرال بونابرت ؟ وكيف صحته ؟ فكان الخدم يجيبونه من الداخل : ان الامبراطور في غرفة النوم وانه يرسل لكم كل يوم نشرة طبية عن صحته . وبعد عدة أسئلة يسألها الضابط الانجليزي يعود من حيث أتى ويترك خطابا باسم الجنرال بونابارت . وكان نابليون يرجع هذه الخطابات أو يحذفها من النافذة دون أن يفتحها ويقول : ماذا يريدون مني ؟ فليتركوني وشأني . أنا لا أريد مكاتبة انسان ينتهز كل فرصة لاهانتي . وكان اذا حدث أن نابليون لم يخرج من منزله عدة أيام متوالية تدخل الشكوك على نفس هدسون ويظن أنه هرب فيشدد المراقبة ويكثر من ارسال الجنود لهذا الغرض . وكان نابليون أحيانا يتعمد عدم الخروج من منزله ليرى شدة المراقبة عليه ويحرم نفسه من الرياضة وعام ١٨١٩ لكي يتحقق مبلغ شدة المراقبة أمر أن تقفل أبواب ونوافذ منزله قفلا محكما وأحاط سريره بعدة بنادق ومسدسات محشوة وقال : أنهم يستطيعون دخول غرفتي فوق جثتي فقط

وفي السنتين الاوليين من اقامته في جزيرة القديسة هيلانه كانت الاجتماعات في منزله كثيرة ومختلفة يحضرها كثيرون من الاهالى رجالا ونساء ولكن هذه الاجتماعات منعت ولم يعد يزور الامبراطور غير الكهنة والطبيب . فكان يشتغل بنفسه في الحديقة وترتيب المنزل ليقتل الوقت ولم يكن له عمل سوى ذلك غير كتابة مذكراته . وفي خريف ١٨٢٠ ظهرت عند نابليون بوادر مرض خطير أضاعت من نفسه كل أمل بالحرية وكان قد مضى على نفيه في الجزيرة خمسة أعوام ولحظ في أواخر هذا العام أن قواه أخذت تتدرج في الانحطاط حتى أن أقصر رياضة كانت تتعبه وتظهر على وجهه آثار التعب والآلام النفسية وتغيرت على أثر ذلك أحواله تغيرا ظاهرا ولازمه الارق في الليل فكان يطلب في جوف الليل من خادمه الخاص أن يجهز له حماما ساخنا أو أن يحضر له مناشف مسخنة أو كتابا أو خريطة . وأحيانا كان يستدعي ليلا الجنرال مونتولون ويملي عليه شيئا أو يحادثه ويسامره . ولازم غرفته ليلا نهارا لا يعمل عملا غير مطالعة الكتب . وقد عملوا له في غرفته فرسين من الخشب تدوران للرياضة فتلاهى بهما عدة أيام ولكنه بعد أسبوعين أمر بازالتهما وكان يتعب من الخروج للنزهة في العربة . وقلت شهيته للطعام تدريجا حتى أنه ما كان يتناول

غير أربع أو خمس ملاعق من الحساء . وكان طبيبه الدائم انتارانكا يزعجه بمعاملته وحديثه عن مرضه ولازم نابليون سريره ٤٤ يوما وقبل وفاته بأسبوعين أملى وصيته على الجنرال مونتولون وأمر باخراج الخدم وقفل باب غرفته ولبث عشرة أيام متوالية يملي وصيته

وقبل وفاته بأسبوع ظهر في الافق نجم مذنب واختفى بعد ثلاثة أيام فقال نابليون أن هذا النجم يدل على أفول نجم حياتي . وبعد اختفاء هذا النجم هبت رياح شديدة في الاوقيانوس واضطربت مياهه وزبجرت أمواجه فقال الاهالي ان الرياح تشعر بقرب انطفاء حياة رجل عظيم . وقبل وفاته بخمسة أيام استدعى اليه رئيس الدير الكاهن فنيالي ولم يعلم أحد ما دار بينهما من الحديث وهل طلب من نابليون أن يقيم عن نفسه صلاة الكنيسة الوداعية

كان نابليون مضطجعا في سريره على ظهره ورأسه مرفوعة عالية على الوسادة ويده اليمنى ممدودة فوق اللحاف والى جانبها يده اليسرى وكان أحيانا يضع يده على صدره . وعند الساعة الرابعة من صباح ٥ مايو (ايار) عندما عاد علي الى غرفة نوم نابليون بعد استراحة قليلة وجدانه قد قطع التنفس فأدنى النور من وجهه فرأى أن عينيه تنظران ولكن بدون حركة ووجد فمه مفتوحا قليلا . ومن هذه الدقيقة لم يترك الحاشية والخدم غرفة المحتضر وكانوا ينقطون في فمه بين فترة وأخرى بعض نقط من الماء يبلعها بكل صعوبة وعند الساعة السادسة والدقيقة العاشرة من مساء ذلك اليوم أو بعد دقيقة ونصف من اطلاق مدفع الغروب توفي بدون تشنج أو ارتعاش بل انه انطفأ كما ينطفىء نور المصباح .

وعند نصف الليل رفع الخدم جسمه وغسلوه وكانت هذه آخر خدمة قاموا بها لسيدهم . قال علي وأننا عندما لمسنا جسمه شعرنا بأن قوة كهربائية مستكنة فيه . ثم حلق أحد الخدم وجه المتوفي وحملناه ووضعناه على السرير وفي الصباح شرحوا جثته ومزق الحاضرون الملاءة الملوثة بالدم التي جرت عليها العملية أربا أربا وتخاطفوها مقتسمينها فيما بينهم وأصاب الانجليز القسم الاوفر منها . ثم ألبسوه بذلته الرسمية التي كان يرتديها في حروبه وفتوحاته وبهذا انتهت حياة ذلك الرجل العظيم